

العنوان: إشكالية النص والخطاب في الأدب المعاصر

محمد أمين بن بركة

مخبر الخطاب التواصلية الجزائري الحديث

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب - عين تموشنت (الجزائر)

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2018-07-19	2018-06-27	2018-03-12

- الملخص:

إن إشكالية "النص والخطاب" لا تزال تمثل - في الوسط الثقافي النقدي العربي- إحدى أهم الإشكاليات التي لم يحل إشكالها بعد، على الأقل بصورة مقبولة ونهائية، تمكّنا من الاستفادة مما أنجز غربياً على صعيد هذين المفهومين المهمّين (النص والخطاب)، بدليل ما نراه ونلمسه في الساحة النقدية والثقافية العربية من خلط بين هذين المفهومين، وعدم وضوح الرؤية لحقيقة كلّ منهما ما أدّى إلى عدم الدقة في استعمالهما في وعي الكثير من الدارسين العرب، وهذا ما جعلهما يبدوان في كثير من الدراسات العربية - بما فيها بعض الدراسات الأكاديمية- مفهوميين متطابقين حيناً، ومتداخلين حيناً، ومتقاطعين حيناً، ومتكاملين حيناً.

ما هو النص؟ ما هو الخطاب؟ ما الفرق بينهما؟ وما العلاقة بينهما؟

الكلمات المفتاحية: نص - خطاب - نقد - ثقافة - لغة - أدب.

لقد توسع الباحثون الأجانب في دراسة النص، وتشعبت آراؤهم، وتوسع مفهوم النص لديهم، ولقد وصلنا كثير من دراساتهم بلغة أجنبية كانت أم مترجمة إلى العربية، فيما انتشر رؤاهم النقدية عبر كتابات عدد من الباحثين العرب لاسيما المغاربة منهم. وهكذا أخذ النص يحتل حيزا مهما في الدراسات النقدية الحديثة، وأخذوا يميزون بين نص وآخر في المفهوم والدلالة، ناهيك عن الأقسام والفروع الوفيرة التي أخذ يتفرع إليها هذا المفهوم.

والنص اللغوي هو كل نص ينتمي إلى اللغة، وحين يكون الكلام نصا، فهو نص لغوي، لأن النص اللغوي عبارة عن صياغة ضمن تركيب، أما النص الأدبي فهو عبارة عن اتجاه دلالي، وهو نص جزئي مقابل النص اللغوي الذي هو نص كلي، بمعنى أن النص اللغوي مقابل النص الأدبي هو نص شكلي، كما أن النص اللغوي مقابل النص النثري أو الشعري أو القرآني هو نص كلي، وأن جميع هذه النصوص هي أجزاء منه.

ويُعرّف رولان بارث النص على أنه "نسيج الكلمات المنظومة في التأليف والمنسقة بحيث تفرض شكلا ثابتا ووحيدا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا"¹، وهذا التعريف يحملنا بداية إلى أن النص هو عملية النسيج، ولعل المفهوم أبلغ حينما ننظر في صناعة النسيج أو الحياكة، إذ ما تخضع إليه هذه العملية النسيجية لا تقوم على إيجاد خيوط تأتي على شاكلة اتجاه واحد كأن تكون من اليمين نحو اليسار أو العكس، بل إن ما يسمح بنسيج هذه الخيوط هو ما يألفها من خيوط تأتي في اتجاه معاكس للشكل الأفقي، ذلك أن الحائك إن لم تكتمل لديه هذه الخيوط الأفقية والأخرى العمودية، لا يكون القماش منسوجا، والنص يختلج في صدر صاحبه، فيرسم بمثل هذا المأخذ، ويتجسد على شاكلة هذا النسيج.

كما يُقدّم امبرتو إيكو في مجال السيميائيات تحليلا ذا طابع دينامي للنص الأدبي، يفرض مجموعة من الأدوات الإجرائية لتأدية وظيفة الكشف عن حقيقة النص وتمييزه عن النصوص المتفاعلة معه، والتي ترتبط أساسا بتشكيله اللغوي أو بالنصوص المؤثرة على النسيج اللغوي،

¹ رولان بارث، نظرية النص، مجلة العرب والفكر العالمي، تر: محمد خير الدين النقا، العدد 3، 1988م، ص 95.

وهو ما يعرف بالتناص، مؤكداً على "الخصائص الصوتية في النص الأدبي، وعلى العلاقات الاستبدالية القائمة على محور التركيب، وعلى الدلالات الإشارية والإيمائية، وعلى الفضاء الإيديولوجي"¹، وهو الفضاء الذي يقابل النسيج اللغوي ككل ويتصل بالبرامج التركيبية التي تؤدج بصيغتها الخاصة تشكيل النصوص وتميزها عن بعضها البعض بما تحمله من خصائص نصية أسلوبية أو نحوية أو تركيبية، أو حتى علامائية، أو غيرها من عناصر التشكيل اللغوي.

فالنص الأدبي هو كتابة شخصية تتحدث عن أمور جرت مع الكاتب أو الشاعر، وكثيراً ما يكون صادقا في تصوير ما اعتراه، وقد يكون كاذبا، وهو يستعين بالصور وإبراز العاطفة. كما أنه تجربة شخصية انفعالية فيها كثير من التشبيه والاستعارة، يقدمها بأسلوب منمّق فيه موسيقى وعناية، أو وزن وقافية، وهو يعتمد على عناصر أربعة: عنصر العاطفة، وعنصر الخيال، وعنصر الفكر، وعنصر الصورة. كما يتكون من عنصرين رئيسيين هما: الشكل والمضمون، والشكل وسيلة لأداء المضمون، وكل واحد من الشكل والمضمون يتم الآخر، فلا شكل بلا مضمون، ولا مضمون بلا شكل.

والنص الشعري نص جزئي أيضا ينتمي للنص الكلي (النص اللغوي)، ولذلك فهو نص لغوي، لكنه نص تهيمن عليه القيم الجمالية والأدبية للغة ممثلة في وظائفها الشعرية، وبالتالي فهو عبارة عن اتجاه دلالي للغة، والنص الشعري جزء من النص الأدبي الذي يتميز عن غيره من النصوص بمراعاة الطاقة اللغوية، حيث تبدو اللغة في الشعر تركيبية.

ومن جهة أخرى يُسَمّ **تودروف** النص إلى ثلاثة تقسيمات، فقد اقترح التمييز بين "الوجه الشفاهي للنص، وهو الوجه الذي يتكون من كل العناصر اللسانية بالذات (صوتية، قاعدية، إلى آخره) للجمل التي تكونه، والوجه النحوي الذي يحيل ليس إلى نحو الجمل، ولكن إلى العلاقات بين الوحدات النصية (جمل، مجموعات من الجمل، إلى آخره) والوجه الدلالي، وهو إنتاج معقد للمضمون الدلالي للوحدات اللسانية"². أي أن النص لدى **تودروف** مكوّن من الوجه الملفوظ، و الوجه النحوي، وكذلك الوجه الدلالي، وما يُميّز تعريفه أنه لم يربط النص بطول

¹ محمد عزام، النص الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001م، ص23.

² منذر عباس، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2004م، ص122.

معين، وأن النص مكون من عناصر صوتية ودلالية ونحوية تربطها علاقات داخلية تؤدي إلى تماسكه.

ومما سبق نجد أن مصطلح النص في الدراسات الحديثة عرف عديدا من المفاهيم التي اختلفت باختلاف رؤاها الفكرية ومنطلقاتها النظرية، كما أن اعتبار النص دليلا منفتح الدلالات، من خلال اعتماد - كأساس - الجانب التواصلية للإشارات اللغوية، يجعل من النص المطبوع غير قابل للقراءة إلا إذا استنتقنا تكوينه اللساني وقمنا بفعل توليده من خلال نسيجه اللغوي، ويتطلب للوصول إلى ذلك أو للوصول إلى النص المكوّن عدة معارف، كالسيميولوجيا والتحليل النفسي واللسانيات وغيرها من المناهج والإجراءات التحليلية، والتي من شأنها أن تكشف عن صيغ الكتابة والتشكيل النصي عبر مقارنة مستويات النص عند كل منهج.

وإن العلاقة بين النص والخطاب هي أساسا علاقة انبثاق وتجسيد، حيث أن الخطاب يجسد تعبيره في النص، لأنه ذو بعد متعلق بالمحتوى والموضوع، ويعتبر امتدادا للبعد الاجتماعي بينما يمثل النص البعد اللغوي، وبما هو كذلك فإن النص يعتبر تحيينا للخطابات وتحقيقا لغويا لها. "فالخطاب مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق، وإذا كان عالم النص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد الاقتران في الذاكرة من خلال استعمال النص فإن عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما أو جملة الهموم المعرفية التي جرى التعبير عنها في إطار ما"¹.

ويعتبر اختلاف الخطابات خاصية مميزة على اعتبار أن لكل مؤسسة فكرية أو غيرها خطاباتها الخاصة، أو حقولها الخطابية التي تختلف عنها في غيرها، وفي ذلك نجد أن كثيرا من النصوص تتعدد فيها الخطابات فتختلف أو تتعارض، وأن جزء من مجال السمات والظواهر اللغوية التي تولف النص يتحدد بواسطة خصائص الخطاب، بمعنى أن الخصائص التي ينتجها الخطاب لا تؤدي نسا بالضرورة.

كما يذهب كل من فاليري ليتس و مايكل شورت إلى أن الخطاب هو اتصال لغوي يعتبر

¹ روبرت دي بوجراند، النص والخطاب الإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، 1998م، ص 06.

صفة بين المتكلم والمستمع، ونشاطا متبادلا بينهما، وتتوقف صيغته على غرضه الاجتماعي، بينما يعتبر النص ببساطة اتصالا لغويا (محكما كان أو مكتوبا) تقنن وسيلته المسموعة أو المرئية.¹ لكن مايكل ستايبس يعالج مفهومي النص والخطاب وكأنهما مترادفان، ولكنه يلاحظ أنه في استعمالات أخرى قد يكون النص مكتوبا، بينما يكون الخطاب محكما، وقد لا يكون النص تفاعليا بينما يكون الخطاب كذلك، وقد يكون النص طويلا أو قصيرا، لكن الخطاب يوحى بطول معين، ويتميز النص بانسجام في الشكل والصيغة، بينما يطبع الخطاب انسجام أعمق من حيث الدلالة والمعنى.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن علاقة الخطاب بالنص علاقة جدلية الفارق فيها هو التحيين اللغوي، أن الخطاب يظهر من خلال النص وفيه، كما أن سمات النص تشكل خطابا بحيث لا يكون الخطاب تجميعيا للنصوص ولكنه البنية التجريدية لتجمع ما.

وبهذا يمكن القول أن مفهوم النص غير مفهوم الخطاب، فالنص هو مجمل القوالب الشكلية أي النحوية و الصرفية والصوتية، بعيدا عما يكتنفه من ظروف أو ما يتضمنه من مقاصد، أما الخطاب فهو يحيلنا على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي وكذا تأويله مما يجعلنا نفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه، والعلامات المستعملة فيه فهي غير لغوية أحيانا مثل التمثيل الصامت والرسم الكاريكاتوري والخطاب الإعلامي التجاري الذي يمدنا بالمعنى بدون علامات لغوية، وبذلك يصير الخطاب في حده كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا.

ولقد شهد القرن العشرون ثورة نقدية حقيقية، عائدة إلى التصدع والانفجار الكبيرين اللذين أصابا اللسانيات، إنها ثورة انقطاع عن كل الحثيات الواقعة خارج النص الأدبي، فقد زودت اللسانيات النقد الأدبي بصرامة علمية كبيرة استفاد منها كثيرون، ورغم وجود اتجاهات عديدة للنقد الأدبي الحديث إلا أن ما يجمع بينها هو الانطلاق من النص دون غيره، والنظرية السيميائية واحدة من هذه الاتجاهات التي شقت طريقها النقدي بوضوح استنادا إلى أسس لسانية وبنوية، أضافت إليها عناصر سيميائية أخرى، فكانت بذلك منهاجا نقديا يستحق أن يتبع ويتبنى

¹ سارة ميلز، الخطاب، تر: غريب اسكندر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م، ص03.

في تحليل النصوص.

كما استطاعت النظرة السيميائية أن تتوغل في مختلف مجالات الأدب والفن والثقافة بحكم أنها مجالات تتخذ من علامات النص الأدبي والإبداع المسرحي والسينمائي والتشكيلي هيكلًا يمكن أن يشمل ثقافة متميزة، وتصلح كمادة - متعددة الأبعاد والأعماق - لدراسة والتحليل.¹ أي أن لكل نص أدبي كيانه المستقل بذاته، الذي لا يمنعه من إقامة علاقة جدلية مع الحقول الثقافية الأخرى، إذن النص الأدبي بكل بساطة عبارة عن علامة، فيأتي علم السيميائيات باعتباره العلم الذي يتكفل بدراسة أنظمة العلامة، فيحاول أن يتعرف عن كنهها وعلتها وكيونيتها ولعاقبتها بغيتها من العلامات، فهو يهتم بالنص في حد ذاته، بغض النظر عن كل المؤثرات الخارجية.

ومعنى هذا أن السيميائيات تدرس النص الأدبي باعتباره علامة، وذلك لأنها تنظر إلى الأبنية العامة للنصوص الأدبية باعتبارها نسقا من العلامات مغلقا على نفسه، ولا يشير إلى شيء خارجه، سواء كان هو الواقع الاجتماعي أو الوجود الإنساني بوجه عام.² أما الطريقة التي تحلل بها السيميائية النص الأدبي فتستند إلى عمليتي التفكير والتركيب، التي تشبه تفكيك أعضاء الدمية وتركيبها، على غرار البنيوية النصية المغلقة، والتي تلغي كل الحثثات السياقية والخارجية، إلا إذا ظهرت من خلال التناص.

ويؤكد رولان بارت أثناء حديثه عما تقدمه السيميائيات من ملاحظات حول ما يسميه لعبة الدلائل في النص عن أهمية التشكيل اللغوي للنص إذ يرى أن النص هو آلة لغوية ليس من السهل التحكم بها، وإنما علينا أن نترك لأجزاء النص، وما فيه من علامات متسعا من الحوار والجدل والتفاعل الداخلي الذي يتكشف عن وجود طرق مختلفة للإبلاغ والتوصيل والتعبير.³ وهذا دليل على أهمية اللغة في تشكيل النص لأنها أساس كل النصوص مهما كانت درجتها الأدبية.

ومن جهة أخرى فالناقد السيميائي لا بد أن يعلم أن دراسة الشعر هي في الحقيقة عملية

¹ نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، 2003م، ص370.

² سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2002م، ص17.

³ إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث: من المحاكاة إلى التفكير، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، 2003م، ص105.

جدلية بين النظرية والتطبيق، أي أنه لابد أن تسبق بمرحلة استيعاب لمفردات المعجم والنحو، ثم ممارسة عملية التزاوج بين النظرية والتطبيق، أي بين ما تعلمه الناقد سابقا وبين القول الشعري، فالهدف الذي يسعى إليه النقاد السيميائي من خلال قراءته للشعر قراءة سيميائية، إنما هو تحرير النص من قيوده المفروضة عليه، وهذه عملية تكرارية يحدثها الشاعر أولا بأن يحرر الكلمات من قيودها، وهذا حدث تلقائي، وغير واع، وهو من مظاهر الإبداع الفني والقدرة عليه.¹

وفي الأخير يمكن القول أن السيميائية تبقى النظرية الأكثر انضباطا في قراءاتها للنصوص الأدبية، بالرغم من اعتمادها على مبدأ الإشارة الحرة، فالتحليلات السيميائية تتحاز إلى خطوات يُسطها المُحلل، ويُعرّف قارئها بها قبل الشروع في التحليل.

¹ ففصل الأحمر، السيميائية الشعرية، جمعية الإمتاع والمؤانسة، الجزائر، 2005م، ص181.

مراجع البحث:

1. إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث: من المحاكاة إلى التفكيك، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، 2003م.
2. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب الإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، 1998م.
3. رولان بارت، نظرية النص، مجلة العرب والفكر العالمي، تر: محمد خير الدين البقاعي، العدد 3، 1988م.
4. سارة ميلز، الخطاب، تر: غريب اسكندر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م.
5. سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2002م.
6. فيصل الأحمر، السيميائية الشعرية، جمعية الإمتاع والمؤانسة، الجزائر، 2005م.
7. محمد عزام، النص الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001م.
8. منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2004م.
9. نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، 2003م.